

المحاضرة السادسة:

حول اضطراب مفهوم الفشل التعليمي

وتعدّد الدلالات والمعاني



Illustration : Ran Z, « Chess mate », 4.1.2006, Flickr (licence Creative Commons)¹.

الهدف المرام: التعرف على أهم معاني مفهوم الفشل التعليمي / المدرسي

مقاربة نقدية لوظائف المدرسة المعاصرة:

- في السيوسولوجيا يوجي مفهوم المدرسة الى التكوين الأساسي للأطفال من مرحلة

الحضانة الى المرحلة الجامعية . De la maternelle à l'université

- أية علاقة ممكنة بين المجتمع والمدرسة؟:

إنّها علاقة جدّ متداخلة ومترابطة، تاريخياً، زادَ الإقبال الهيستيري على المدرسة منذ رفع

تحدي ديموقراطية وإلزامية ومجانية التعليم الأساسي للجميع، خاصّة منذ مطلع القرن

العشرين كضرورة ملحة فرضتها الهيمنة الرأسمالية بعد نجاح الثورة الصناعية. الجهاز

¹ José Luis Moreno Pestaña, "Pour une sociologie de l'échec intellectuel", Traduction de Philippe Hunt.

المدرسي كنتاج تاريخي مرتبط بنمط الإنتاج الرأسمالي، إنها الإبن البار للنظام الرأسمالي يقول "بيار بورديو Pierre Bourdieu". ففي فرنسا مثلاً، ومنذ 1882 أصبح التعليم الابتدائي إلزامياً ومجانياً وعالمياً وعلمانياً، ومنذ تحقيق مبدأ ديمقراطية التعليم في المدارس الى حد مقبول، ومع وصول أعداد كبيرة من أبناء الطبقات الاجتماعية ذات الأصول الشعبية، تنامي التساءل الدائم والمزمن عن وضعية ومآل التلاميذ الذين لم يتمكنوا من "تحقيق" النجاح المطلوب.

- وُضِعَتْ/أُسِسَتْ المدرسة لتُلبِّي وظيفتين أساسيتين، الوظيفة الاقتصادية بإنتاج وإعادة إنتاج قوّة العمل، قوّة عاملة مُهيَّئَة ومنتدّبة بمستويات متباينة، من الحاجب الى المدير العام، على حسب احتياجات تراتبية المناصب والوظائف الاقتصادية الخدمانية للعجلة الاقتصادية الرأسمالية ، لأنّ النّظام الاجتماعي القائم على هكذا منطق يحتاج لكلّ الفئات بكل المستويات التّعليمية والتّكوينية، لذا وضعت المدرسة تراتبية تعليمية حسب الأطوار [الابتدائي، المتوسط، الثانوي، الجامعي]، وكل طور به عديد المستويات، الأول، الثاني،.. ، تشهد عليه نوعية الشّهادة الممنوحة من لَدنها. وفق مبدأ التّصفية والغربلة التي يُتقنها النّسق المدرسي والتّكويني -التّكوين المهني-. ومن هنا تُمسي وظيفة المدرسة وما شاكلها من أجهزة إعادة إنتاج من يخدم الطبقة المُهيمنة، أيّ إعادة إنتاج الطّبقَة العاملة/ الخادمة لها. سواء من العمال المنفذين -الابتدائي، المتوسط، الثانوي- أو الفئة الوسيطة من الأطر المُشرقة على تنفيذ مشروع الطّبقَة المُهيمنة من خريجي الجامعة. ثمّ وظيفة ثانية تتركز في إنتاج وإعادة إنتاج المحيط الأيديولوجي والثّقافي المُشرعن لما سبّقه، أيّ صناعة أشخاصاً -متعلمين- وفق قوالب ثقافة المجتمع/ الطبقة المُهيمنة -مالكة وسائل الإكراه والإخضاع، وصاحبة الحُل والرّبط الحقيقي.

- Arnie "le rôle de l'école c'est de conformer l'élève à l'idiologie de la classe dominante

• وعليه فالإنسان المُرام صناعته من خلال الصّيرورة التّعليمية والتّنشئة المدرسية ليس ذلك الإنسان الطّبيعي المُتحرّر، وإنّما الإنسان وفق صورة يتصوّرها أهل الحل والرّبط ومالكي وسائل الانتاج والهيمنة. بعبارة دوركايم Durkheim "أنّ الرجل الذي يريد التّعليم أن يحقّقه فينا ليس الإنسان كما شكّلتها الطّبيعة، ولكن كما يريده المجتمع أن يكون. فمن جهة المجتمع أو بالأحرى المُهيمن في المجتمع هو من وضع أساس المدرسة، فهي صناعة مجتمعية، إذ لا يمكن لها أن تخرج عن السّياق الذي يرسمه لها المجتمع، وعن الوظائف والأدوار المسموح لها، وفي ذات الوقت تصبح المدرسة جهاز-رهيب- لصناعة المجتمع، وقوْلبة أفرادها، على حسب فلسفتها. لكن يجب التّنبية بما يسمى سوسيولوجياً عند " ريمون بودون Raymond Boudon " بالآثر غير المرغوب ² L'effet pervers إذ يمكن أن تتشكّل ظواهر غير مرغوب فيها، لم نكن نريد الوصول إليها، إذ يمكن أن تظهر وظائف وأدوار لم تكن في الحسبان، نعمل لتُخضع النّاس، فيتعلّمون كيف يتحرّروا من هذا الاخضاع والتّرويض، ولعل نموذج المدرسة الاستعمارية بالجزائر إبان الاستعمار الفرنسي لخير برهان.

تداخل متغيرات مفهوم الفشل التّعليمي؟:

• نذكر أنّ مفهوم الفشل الدّراسي لا يمكن فصله عن النّجاح الدّراسي، كما ذكرنا في المحاضرة السّابقة، ذلك لأنّ غياب أسباب ومتغيّرات صناعة حالة النّجاح الدّراسي باعتبارها الوضعية المندشودة لأيّ نظام تعليمي ومؤسّساته من أجل تحقيق الأهداف المطلوبة في ظل خصوصية ومتطلبات النّظام الاجتماعي والثّقافي السّائد والمُهيمن، قد يؤدي بالضرّورة لتجليّ انحرافات مدرسية وتربوية غير مطلوبة يملئها الفشل الدّراسي، بأشكال متباينة.

² يمكن توصيف الأثر غير المرغوب/ الضار بأنه نتيجة غير مرغوبة فيها، ومؤسفة لعمل ينقلب ضد نوايا أولئك الذين شاركوا فيه، وفقاً لمقولة "الجحيم محفوف بالنوايا الحسنة L'enfer est pavé de bonnes intentions"، والتي مقصدها أنه حتى أفضل الأفكار والنوايا الحسنة يمكن أن تؤدي إلى نتائج كارثية. وعلى الرغم من حقيقة أن الشخص يتحرك بنوايا حسنة لحظة بداية التصرف يمكنه أن يحدث كوارث.

● أصبح الفشل التعليمي بكل أشكاله ظاهرة اجتماعية عالمية مُقلِّقة، وكثيرة التّعقيد، حيث تتعاقد العوامل الفاعلة والمُنْفَعِلة بها، إذ أصبح يُعبّر عنه بشكل كبير من خلال ظاهرة التّسرب التعليمي (Décrochage scolaire (Dropping out)، الذي أصبح مشكلة تعليمية ثقيلة ومُقلِّقة، وموضوع بعض العيادات البحثية منذ نهاية القرن 19 بالو.م.أ، ثم لظاهرة خاصّة بالدّول المتقدّمة، ومنها لمُعضلة تُورّق السّلطات العامّة بعدد الأمصار، وشُغل شاغل لكثير من المنظّمات المحلية والدولية، خاصّة مع ستينيات وسبعينيات القرن العشرين.

● وإن كان من النّاحية الفلسفية والسوسولوجية خاصّة يتّعسّر تحديد معنى واضح ودقيق للمفهوم، خاصة بغياب معايير إجماعية موضوعية لما يُسمى بالنّجاح، كما أسلفنا التّوضيح خلال محاضراتنا السّابقة. إذ يمكن لكلّ شخص أن يجد معنى خاص به، لهذا المفهوم، للتّوفيق و"إنقاذ ماء الوجه" كما يقول "إرفين غوفمان E. Goffman"، بيّن موقفه الموضوعي القائم بنتائجه الايجابية والسّلبية ومتطلبات ترّجسيته القائمة. رغم ذلك يعرّف من زوايا ومقاربات متباينة. كما يُعرّف الفشل التعليمي/المدرسي باعتباره حالة تعليمية للتلميذ/ الطالب الذي يَخْفَق في صعود المسار/ السّلم المدرسي الرّسمي. ويمكن أن يعرّف الفشل المدرسي باعتباره حالة تأخّر في الدّراسة، ذات أشكال وأنماط متباينة من حيث المدّة والشكل والنّمط، لكن ما تكاد تتفق عليه الدّراسات أنّه يصيب التلاميذ المُنتمون لِحواضن مَحرومة Milieux défavorisés مادياً، اقتصادياً، ثقافياً، صحياً،.. وخاصة الذّكور منهم.

● كثيراً ما يُتعامَل مع ظاهرة الإخفاق أنطلاقاً من خلفية صحيّة، حيث يقتصر أسبابها باعتبار "الطفل مريض" يعاني من اعتلالات صحيّة جسميّة ونفسيّة، وإن لم ينفي ذلك العلماء، ما جعله أحد الأسباب الأكثر شيوعاً لاستشارات طب الأطفال -الطب الفزيولوجي أو الطب النّفسي للطفّل/المراهق³. إذ يمكن أن يرتبط الفشل باضطرابات

³ La pédopsychiatrie est la branche de la psychiatrie consacrée aux enfants/adolescents, de la naissance jusqu'à l'entrée dans la vie adulte. Elle recouvre l'étude, le diagnostic, le traitement et la

فيزيولوجية عديدة، على نحو، عُسر القراءة Dyslexie ، عُسر التعبير والكلام Dysphasie ، عُسر الكتابة Dysgraphie ، عُسر الحساب Dyscalculie ، عُسر الأداء Dyspraxie ، أو اضطراب نقص الانتباه، أو التَّضجِ الفكري مع أو عدم فرط الحركة Le trouble déficit de l'attention avec ou sans hyperactivité ، كالتَّوْحُد L'autisme ، اضطرابات الذاكرة، الموهبة لعدم قدرة النظام التعليمي على استيعابهم وتفهمهم، لذا عديد الدول تخصص ما يسمى بصفوف الموهوبين في مدارسها، إضافةً للقلق، الفوبيا Les phobies ، اضطرابات الحسية Les troubles sensoriels في السَّمع ، البصر، الحركات الجسدية،... خاصة عندما لا يتم التعامل معها بشكل صحيح. لذا يوصي أهل الاختصاص بضرورة الكشف المبكر عن هكذا اضطرابات لأهميته في الحد من تعرّض الطفل للفشل مهما كانت درجاته. إذ يمكن أن تظهر العلامات الأولى من سنوات الدراسة الأولى للطفل، كما سيتم التفصيل لاحقاً.

- كشفت عديد الدراسات أنه منذ بداية القرن الماضي الى اليوم، تباينت تسميات التلاميذ/الطلاب الفاشلين بمرور الوقت. إذ خلال السّتين سنة الأولى من القرن العشرين كان الحديث عن الطلاب 'المتأخرين En retard ، أو الأطفال 'المتخلفين Arriérés' ، أو الأطفال 'المتخلفين عقلياً Débiles mentaux' ، ثم الطلاب 'الفاشلين En échec' أو 'غير المتكيفون Inadaptés'. لكن منذ عام 1990 ، ظهر توصيف جديد ، وهو 'التلاميذ الذين يواجهون صعوبات D'élèves en difficulté'. ومع ذلك ، حتى لو تغيرت التسميات للفئة المقصودة وللحالة المعاشة، تبقى الحقائق ذاتها، أو بعبارة Watzlawick 'كلما تغيرت، كلما كانت الأشياء نفسها 4".

prévention des troubles psychiques qui les affectent et entretient des liens étroits avec la médecine, la psychologie du développement, la biologie, la sociologie, et les sciences de l'éducation. <https://fr.wikipedia.org/wiki/P%C3%A9dopsychiatrie>

⁴ Paul Watzlawick, John Weakland John Hast ,Fisch Richard ,Furlan, Pierre, "Changements : paradoxes et psychothérapie; traduit de l'anglais (Etats-Unis) par Pierre Furlan, Collection : Points. Série Essais, Éditions du Seuil 1975, p.49. Cité dans; Christophe Roiné, « La fabrication de l'élève en difficulté», Éducation et socialisation [Online], 37. URL: <http://journals.openedition.org/edso/1138> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/edso.1138>

• من المسلم به اليوم بين أهل الاختصاص أنّ الفشل التعليمي متعدّد العوامل L'échec scolaire est multifactoriel كما أسلفنا الإشارة، فبعدما كان يُنسب سابقًا إلى تدني معدّل ذكاء التلميذ- القُدرة العقلية للتلميذ⁵، برهنت المقاربات الاجتماعية أنّ التلميذ الذي يتعرّض للاخفاق لم يعد المسؤول وحده عن فشله، بل أصبح ضحيّة النّظام التعليمي القائم. حيث أوضحت المسؤولية مشتركة، وألقيت تلقائيًا على فلسفات وسياسات ومُسيّري النّظام التعليمي، وعلى الأسر ومرافقتها الشّبه غائبة، بل وإهمالها لوظيفتها التّربوية. وهذا ما يعبر عنه "فيليب ميريو Philippe Meirieu" بقوله "تتطلب مكافحة الفشل المدرسي جهود العديد من الجهات الفاعلة، المختلفة والمتكاملة، ذلك لأن جميعهم مسؤولون عنها بشكل كامل وشامل".

• بدأ التّنبّه لهذه المستجدات المعرفية منذ بدايات مساءلة فكرة حاصل الذّكاء (العمر العقلي / نسبة العمر الفعلية للطفل) التي تعرضت لعديد الانتقادات المبرّرة، حيث تراجعت البراهين النّفسية والفردية للفشل، إلى حد من جعلها ثانوية تقريبًا ولا أحد اليوم يلوم فشل التلميذ على 'هدية' فطرية أو نقصها حسب روائز الذكاء، ألا وهي الذكاء. حيث تمّ افساج المجال للمقاربات الماكروسوسولوجية والميكروسوسولوجية والانترولوجية بمناهج مختلفة ومتداخلة التّخصّصات. إذ تحاول عديد الدّراسات فهم الارتباطات الإحصائية لتفسير وتفهم عوامل الفشل المدرسي على المستوى الماكروسوسولوجي.

• لكن هذا لا يُلغي ما للعوامل السوسيوثقافية من فعالية في إحداثها، إذ يمكن قراءتها ضمن عيادة العلوم الاجتماعية وتعريفها من عدّة مستويات معرفية ومنهجية، خاصّة منذ سبعينيات القرن الماضي، حيث أوضحت موضوعًا متميزًا في سوسولوجيا التربية والتعليم. ما جعل عديد الدّارسين يحاولون تفكيك آليات إشتغال هكذا ظاهرة اجتماعية. حيث يتواجد هذا المفهوم بين تقاطعات تخصصات عديدة، علم الاجتماع،

⁵ ممّا يعرف به المتخلف دراسياً هو ذلك الذي ترتفع نسبة ذكائه على 70 درجة، وتنخفض عن 90 درجة، أي المستوى الأعلى لضعاف العقول =معجم علوم التربية=.

علم النفس، البداغوجيا، ... وأمام مصالح متعدّدة اقتصادية، سياسية، اجتماعية، تنشئية... ما يجعله يتباين من حيث التعريف حسب وجهات نظر مُتباينة⁶.

● يميّز الباحثون ضمن ظاهرة الاخفاق التعليمي بين مفاهيم متداخلة ومتقاربة إلى حدّ ما، رغم ذلك تبقى لها دلالاتها المتميّزة والفرارقة من حيث المعنى سواء في الزّمان مُؤقت، أو الصّفة جزئي، أو التّعديل والتّصحيح، أو مقدار التّكلفة المُرتبّة عن ذلك، على نحو: إعادة المستوى كنتيجة للرّسوب، الهدر التعليمي، الفشل التعليمي، التّعثر الدّراسي، اللاتكّيف التعليمي، التّخلف الدّراسي وليس التّخلف العقلي، لأنّ هناك خلط في الفهم حتى من لدن القائمين على التربية، الفشل التعليمي كنتيجة حتمية للظواهر السّابقة... وغيرها من المصطلحات التي تتطلب من الممارس في الميدان أن يدرك تلابيها.

● تظهر الدّراسات العلاقة الوطيدة بين الفشل المدرسي والفئة الاجتماعية-المهنية للوالدين La catégorie socio-professionnelle des parents، حيث تتعاظم التّفاوتات الاجتماعية Les inégalités sociales إلى حدّ كبير، التي تتجلّى بشكل واضح من خلال التّفاوتات التعليمية المدرسية، إذ غالبًا ما يتم التّأكيد على التّباين والتّباعد الواضح بين ثقافة الأسرة ومستوى تعليم الأولياء والثّقافة المدرسية⁷، على الرّغم من ترديد شعار الأخيرة بأنها 'مصعدّ لتحقيق الارتقاء الاجتماعي Ascenseur social'⁸.

● تؤكد الباحثة المُتمرّسة "فرانسين فانيسكوت Francine Vaniscotte" باحثة بالمعهد القومي للبحوث التّربوية أنّ الفشل التعليمي نتجّ بالمدرسة الأوروبية نتيجة تصادم بين منطق مختلف، الأوّل يقول بضرورة تعليم أكبر عدد من الأطفال، لأطول فترة ممكنة، والثّاني ضرورة تلبية الاحتياجات الاقتصادية، أمّا الثّالث فيؤكّد على انتقاء النّخبّة المناسبة لذلك⁹. ففي فرنسا مثلاً في بداية ستينيات القرن العشرين، في بداية تنفيذ خطة اصلاح

⁶ Bernard Desclaux, "B, Rayon. L'échec scolaire. Histoire d'un problème publique, in *L'orientation scolaire et professionnelle*, n 30/4, 27 mai 2001.

⁷ *Echec scolaire, Citoyen de demain* » [archive], sur www.citoyendedemain.net

⁸ للأسف تشير الاحصاءات في المجتمعات العربية أن نسبة الاخفاق التعليمي بكل أشكاله، من أعلى النسب بل تفوق معظم النسب العالمية أحياناً.

⁹ *ibid.*

تدريس اللّغة الفرنسية والمعروفة باسم خطة Rouchette ، كَشَفَ باحثون من INRP ، بقيادة "لويس ليجراند" أنّ نسبة التّلاميذ في المدارس الابتدائية المكرّرين لمستوى أو مستويين بلغوا 50 ٪، وبشكل رئيسي هم أبناء وبنات الفئات الاجتماعية الأكثر حرماناً، اقتصادياً وثقافياً¹⁰.

1. Patrick Gosling, " Qui est responsable de l'échec scolaire?", Collection Psychologie Sociale, Puf, 1992.

¹⁰ Francine Best, "L'échec scolaire", Collection : Que sais-je? , Pages: 128, Presses Universitaires de France, 1996, p16.